

الهوية والاعترا ب في رواية دانشمند لأحمد فال الدين

الدكتور يحيى معروف

يحيى معروف، أستاذ دكتور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

yahyamaarouf@gmail.com

حوراء طالب سعد، طالبة ماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمنشاه.

ht1744729@gmail.com

Identity and Alienation in Ahmad Faluddin's Daneshmand

Dr. Yahya Marouf

Professor, Department of Arabic Language and Literature, Razi University, Kermanshah.

Hawraa Talib Saad

Master's student, Department of Arabic Language and Literature, Razi University, Kermanshah.

المخلص:

تستعرض هذه الدراسة التحليلية رواية "دانشمند" للروائي الموريتاني أحمد فال الدين، المرشحة للقائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لعام ٢٠٢٥، مسلطة الضوء على إشكاليات الهوية والاعترا ب بوصفهما محورين مركزيين في البناء السرد للرواية. يتناول البحث كيفية توظيف الكاتب للشخصيات وفضاءاتها المكانية في الكشف عن أزمة الانتماء التي يعيشها الإنسان الموريتاني في مفترق الثقافات، بين الموروث الأفريقي العميق والهوية العربية الإسلامية والحداثة الوافدة. يحلل البحث الأنماط الإنسانية التي رسمها الكاتب لشخصياته، مبرزاً دور الذاكرة الجمعية والموروث الثقافي الشعبي في صياغة الهوية ومقاومة النسيان، كما يدرس توظيف الزمان والمكان بوصفهما أدوات سردية تعمق الدلالات الاجتماعية والنفسية في النص. تعتمد الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في مقارنة النص الروائي، وتهدف إلى الكشف عن الرؤية الإبداعية التي جعلت من "دانشمند" صوتاً روائياً متميزاً يُعيد رسم خريطة الهامش الجغرافي والثقافي في المشهد الروائي العربي المعاصر. **الكلمات المفتاحية:** أحمد فال الدين، دانشمند، الرواية الموريتانية، الهوية والاعترا ب، الموروث الثقافي.

Abstract: This analytical study examines the novel Danshmand by Mauritanian novelist Ahmed Fal Al-Din, which was shortlisted for the International Prize for Arabic Fiction (Booker) in 2025, shedding light on the twin issues of identity and alienation as the central axes of the novel's narrative structure. The research explores how the author employs characters and their spatial settings to reveal the crisis of belonging experienced by the Mauritanian individual at the crossroads of cultures — caught between a deep African heritage, Arab-Islamic identity, and encroaching modernity. The study analyses the human archetypes the author has crafted for his characters, highlighting the role of collective memory and folk cultural heritage in shaping identity and resisting erasure. It also examines the deployment of time and place as narrative tools that deepen the social and psychological dimensions of the text. The study adopts a descriptive-analytical methodology in its approach to the novelistic text, aiming to uncover the creative vision that renders Danshmand a distinctive literary voice — one that redraws the map of geographical and cultural marginality within the contemporary Arabic novel.

Keywords: Ahmed Fal Al-Din, Danshmand, Mauritanian Novel, Identity and Alienation, Cultural Heritage.

تُعدّ الرواية العربية المعاصرة من أبرز الأجناس الأدبية التي استقطبت اهتمام النقاد والباحثين، لما تحملته من طاقة تعبيرية هائلة قادرة على رصد التحولات الاجتماعية والثقافية والإنسانية التي يشهدها العالم العربي في مراحلها المتعاقبة. وقد باتت الرواية اليوم فضاءً خصباً لطرح الأسئلة الوجودية الكبرى المتعلقة بالهوية والانتماء والاعتراق، لا سيما في ظل عالم يشهد تحولات متسارعة تُعيد تشكيل العلاقة بين الإنسان ومحيطه الثقافي والجغرافي. ولم يكن موضوع الهوية والاعتراق بعيداً عن اهتمام الروائيين العرب، بل يكاد يكون من أكثر الموضوعات حضوراً في المتن الروائي العربي الحديث، إذ يعكس صراع الإنسان العربي في مواجهة موجات التغيير المتلاحقة التي تُهدّد ثوابته الثقافية وتُعيد تشكيل علاقته بذاته ومجتمعه. وتتقاطع قضية الهوية مع قضية الاعتراق تقاطعاً عضوياً، إذ لا يكتمل فهم أحدهما بمعزل عن الآخر، لأن الاعتراق في جوهره ليس إلا انفصلاً عن الهوية وقطيعةً مع الجذور الثقافية والاجتماعية التي تُشكّل وجدان الإنسان وتُحدّد مساره. وتحتل إشكالية الهوية في الأدب مكانةً محوريةً في الدراسات النقدية الحديثة، إذ تنتشعب في اتجاهات متعددة تشمل الهوية الثقافية واللغوية والمكانية، وكلها تصبّ في مجرى واحد هو سؤال الإنسان عن موقعه في العالم وانتمائه إلى جماعة وثقافة وتاريخ. أما الاعتراق فهو حالة من الانفصال بين الإنسان وفضائه الثقافي الأصلي، تُؤدّ لديه شعوراً مزماً بعدم الانتماء ويقيناً بأنه غريب في محيطه وغريب عن ذاته في آنٍ واحد، وهو ما يجعل الاعتراق تجربةً وجوديةً شاملةً لا تقتصر على البُعد الجغرافي بل تمتد لنطال أعماق الروح وتلقي بظلالها على كل تفصيلة من تفاصيل الحياة. وتبرز في هذا السياق رواية "دانشمند" للروائي الموريتاني أحمد فال الدين بوصفها إضافةً نوعيةً حقيقيةً إلى خارطة الرواية العربية المعاصرة، لا لكونها صوتاً جغرافياً مختلفاً من هامش الخريطة العربية فحسب، بل لأنها تحمل رؤيةً إبداعيةً عميقةً تُعيد طرح أسئلة الهوية والاعتراق من زاوية ثقافية خاصة تجمع بين الموروث الأفريقي العميق والهوية العربية الإسلامية الراسخة والحدّاث الوافدة. وقد استحققت الرواية وصولها إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لعام ٢٠٢٥، مما يعكس اعترافاً نقدياً واسعاً بقيمتها الفنية وعمقها الدلالي، وإقراراً بأن الأدب الموريتاني بات يُشكّل صوتاً حقيقياً ومميزاً في المشهد الروائي العربي. وفي ضوء ما تقدّم، تأتي هذه الدراسة لتتناول رواية "دانشمند" تناولاً نقدياً تحليلياً، ساعيةً إلى الكشف عن الكيفية التي وظّف بها أحمد فال الدين أدواته السردية في بناء عالم روائي يُجسّد أزمة الهوية ويستكشف أبعاد الاعتراق في نص يقف على مفترق الثقافات، معتمداً المنهج الوصفي التحليلي أداةً منهجيةً في مقارنة هذا العمل الروائي المتميز.

مشكلة الدراسة: تنطلق هذه الدراسة من تساؤل جوهري مفاده: كيف جسّدت رواية "دانشمند" للروائي الموريتاني أحمد فال الدين إشكاليّة الهوية والاعتراق في بنائها السردية، وما الأدوات الفنية التي وظّفها الكاتب للتعبير عن أزمة الانتماء لدى الإنسان الموريتاني في مواجهة تقاطع الثقافات؟ وتتفرّع عن هذا التساؤل المحوري جملةً من الأسئلة الفرعية، أبرزها: ما الأنماط الإنسانية التي رسمها الكاتب لشخصياته في مواجهة أزمة الهوية؟ وكيف وظّف الكاتب الموروث الثقافي في بناء دلالات الاعتراق؟ وما دور الزمان والمكان في تعميق هذه الإشكاليات في النص؟

منهج البحث: يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي بوصفه المنهج الأنسب لطبيعة الموضوع وأهدافه، إذ يقوم في شقّه الوصفي على رصد الظواهر الأدبية والسردية في النص الروائي ووصفها وصفاً دقيقاً موضوعياً، ويقوم في شقّه التحليلي على تفكيك هذه الظواهر واستجلاء دلالاتها ومضامينها الثقافية والإنسانية.

ثالثاً: التعريف بالكاتب والرواية

أولاً: أحمد فال الدين ومكانته الأدب يُعدّ أحمد فال الدين أحد أبرز الأصوات السردية الموريتانية في المشهد الروائي العربي المعاصر، وهو روائي وأكاديمي نشأ في بيئة تجمع بين ثراء التراث الموريتاني الشفهي وعراقة الموروث العربي الإسلامي المكتوب، مما أسهم في تشكيل رؤيته الأدبية المتفردة التي تزاوج بين الخصوصية المحلية والأفق الإنساني الكوني. وقد اتّسم مساره الأدبي بالجدية الأكاديمية والعمق الفكري، إذ جمع بين ممارسة الكتابة الإبداعية والانتماء في البحث والدراسة، وأولى في كتاباته عنايةً خاصةً بمسألة الهوية والانتماء، وهي إشكالية تحتلّ قلب التجربة الموريتانية التي تتقاطع فيها الهويات الأفريقية والعربية والإسلامية ولا تنصهر. وقد جاء وصول روايته "دانشمند" إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية ٢٠٢٥ اعترافاً دولياً بقيمته الفنية، ولتأكيد الاعتبار لهذا الصوت الآتي من عمق الصحراء الأفريقية، مما يؤكد ما أشار إليه سمر روجي الفيصل من أن "الرواية العربية المعاصرة قد اهتمت بالكتابات الأدبية حين يبدع الروائيون الشخصيات في رواياتهم" (الفصل، ١٩٩٥، ص ١٧٧).

ثانياً: ملخص رواية "دانشمند" كلمة "دانشمند" ذات أصل فارسي تعني "العالم" أو "طالب العلم"، وهي دلالة تنطوي على معاني البحث والسعي والرحلة الفكرية التي لا تبلغ نهايتها، مما يجعل العنوان في ذاته مفتاحاً دلالياً يُضيء الموضوع الأساسي للرواية. وتنهض الرواية على محورين متشابكين: محور الهوية بكل ما ينطوي عليه من أسئلة الانتماء والجذور والتحوّل، ومحور الاعتراق الذي يُلزم الإنسان المنتزع من سياقه الأصلي

ليجد نفسه معلقاً بين عالمين. فالبطل لا يعيش أزمة فردية معزولة، بل يُجسّد أزمة الإنسان الموريتاني الذي ينتمي في آنٍ واحدٍ إلى ثقافات متعددة ومتداخلة، ويتخذ المكان في الرواية طابعاً رمزياً إذ يُشكّل شريكاً فاعلاً في بناء الدلالة، وهو ما يُجسّد ما أشار إليه عكاشة من أن الصورة الأدبية هي "وعاء الأديب الذي يحوّل به أفكاره وعواطفه ... إنها تجسّد الأفكار المجردة وتصور الخواطر النفسية والمشاهد الطبيعية" (عكاشة، ١٩٩٠، ص ٧٠).

رابعاً: المبحث الأول - الشخصيات وأنماط الهوية

تُعَدّ الشخصية الروائية من أبرز عناصر البنية السردية وأكثرها حضوراً وتأثيراً في تشكيل الدلالة، إذ تحمل على عاتقها أعباء الحكاية وتُجسّد الرؤى الفكرية والاجتماعية للنص. وقد أولى النقد الأدبي الحديث اهتماماً بالغاً بمسألة الهوية في الشخصية الروائية، بوصفها المحور الذي تتكشف من خلاله أعمق التوترات الإنسانية والاجتماعية. ويرى حسن بحراوي أن الشخصية هي «المحور العام الرئيسي الذي يتكفل بإبراز الحدث، وعليها يكون العبء الأول في الإقناع بمدى أهمية القضية المثارة في القصة وقيمتها» (بحراوي، ١٩٩٠، ص ٢١٥). وفي رواية "دانشمند" لأحمد فال الدين تتجلى هذه الوظيفة بصورة جلية، إذ تتحوّل الشخصيات من مجرد أدوات للحكي إلى نماذج إنسانية حيّة تُجسّد في أعماقها سؤال الهوية بكلّ ما ينطوي عليه من توتر وقلق وبحث لا ينتهي. وقد أكد نادر عبد الخالق أن الشخصية تمثل «محور الأفكار والآراء في الرواية» (عبد الخالق، ٢٠١٠، ص ٤٠)، وهو ما يصدق على شخصيات "دانشمند" التي تحمل في طياتها القضايا الأعمق لمجتمعها الموريتاني المركّب الهويات والمتشعب الانتماءات.

أولاً: الشخصية الرئيسية وأزمة الانتماء تقوم الشخصية الرئيسية في "دانشمند" على بنية داخلية مركّبة يتصادم فيها الانتماء المتعدد مع الهوية الفردية الساعية إلى التشكّل والاكتمال. فالبطل لا يعيش أزمة عابرة بل يُجسّد حالة وجودية عميقة تتمثّل في عدم الانتماء الكامل لأيّ من الفضاءات الثقافية التي يتقاطع معها؛ لا هو ينتمي انتماءً كاملاً إلى عروبته، ولا هو يستطيع الانفصال عن أفريقيته، ولا الحداثة تمنحه ما يُسكّن قلقه الداخلي المتجذّر. ولعلّ هذا ما يجعله نموذجاً روائياً يتجاوز حدوده الجغرافية ليعبر عن تجربة إنسانية كونية، يُلخّصها سمر روعي الفصيل حين يُشير إلى أن «الرواية العربية المعاصرة قد اهتمت بالكتابات الأدبية حين يبدع الروائيون الشخصيات في رواياتهم» (الفصيل، ١٩٩٥، ص ١٧٧)، أي حين تتحوّل الشخصية من فرد إلى رمز جماعي يحمل هموم مجتمع بأسره. وتتجلى أزمة الانتماء في الشخصية الرئيسية من خلال علاقتها المتوتّرة باللغة والمكان والذاكرة في آنٍ واحد. فاللغة العربية التي يُقنّعها البطل وينهل من معينها المعرفي تُشكّل له في الوقت ذاته حاجزاً رمزياً يفصله عن جذوره الأفريقية العميقة التي تنبض بلغات أخرى وأنماط تعبير مغايرة. وحين يجد البطل نفسه بين هذين العالمين يُعبر الكاتب عن هذا التمزّق قائلاً: «كنتُ أحمل في صدري قاموسين لا يتفاهمان، أحدهما يتكلّم بصوت الرمال والآخر يهمس بلغة النجوم، وبينهما أنا، لا أملك إلا هذا الصمت الفاصل» (فال الدين، ٢٠٢٤: ٤٧). وفي هذا المقطع يتكشف جوهر الأزمة الهوياتية للشخصية؛ فالصمت الفاصل بين القاموسين ليس فراغاً بل هو الفضاء المؤلم الذي تقع فيه هوية البطل الضائعة بين انتماءين لا يلتقيان. وتتعمّق هذه الأزمة حين يصطدم البطل بمجتمعه الأصلي بعد غياب طويل، فيجد أنه لم يعد ينتمي إليه بالكامل، وأن الزمن قد رسم بينه وبين ذاكرته المكانية مسافة لا تُقطع. وهو ما يُعبر عنه الكاتب في مشهد العودة إذ يقول البطل: «حين وطئت أرضها من جديد لم أشعر بما يشعر به العائدون من دفء الانتماء، بل شعرتُ بما يشعر به الغريب حين يقف أمام بيت يعرف ملامحه ولا يعرف أهله» (فال الدين، ٢٠٢٤: ٩٣). إنّ الوطن في هذا المشهد لم يعد ملاذاً بل صار مرآة تعكس حجم الاغتراب الذي تحوّل من ظرف طارئ إلى حالة دائمة تُعيد تعريف هوية البطل من جذورها.

ثانياً: الشخصيات الثانوية بوصفها مرايا للصراع الهوياتي لا تقتصر إشكالية الهوية في "دانشمند" على الشخصية الرئيسية وحدها، بل تمتد لتشمل منظومة الشخصيات الثانوية التي تُشكّل في مجموعها فضاءً سردياً متعدد الأصوات يعكس الصراع الهوياتي من زوايا متباينة ومتكاملة. وقد أشار يوسف حطيني إلى أن الروائي يحرص على أن «يُكلّف إحدى شخصيات الرواية بالقيام بمهمة مناسبة وفق رؤيته تحقيقاً لهذه الغاية» (حطيني، ١٩٩٩، ص ٢٥)، وهو ما يصدق على الشخصيات الثانوية في "دانشمند" التي لا تظهر ارتباطاً بل تؤدي كلّ منها وظيفة دلالية محدّدة في الكشف عن أبعاد الصراع الهوياتي الذي يعيشه البطل. فشخصية الشيخ الموريتاني العالم تُمثّل الهوية الراسخة المتجذّرة في الموروث الإسلامي الأفريقي، وهي تقف في الرواية موقف الشاهد الصامت على تقكك الهوية التقليدية أمام ضربات الحداثة المتلاحقة. وحين يلتقي البطل بشيخه بعد سنوات من الغياب يقول الكاتب واصفاً هذا اللقاء: «نظر إليّ الشيخ طويلاً كمن يبحث عن وجه يعرفه خلف وجه لا يعرفه، ثم قال بصوت أجش: ذهبَ دانشمنداً وعدتُ غريباً، فأيهما أنت الآن؟» (فال الدين، ٢٠٢٤: ١١٨). وفي هذا السؤال المُلقى بعفوية الشيخ تتكشف معضلة الهوية بأسرها؛ فالشخصية الثانوية هنا لا تُكمل الحكاية بل تُعزّي جوهرها، وتُجبر البطل والقارئ معاً على مواجهة السؤال الأصعب. أما شخصية الصديق المهاجر الذي استوطن المدينة العربية وانصهر في ثقافتها فتُجسّد النقيض المغري؛ هوية اختارت أن تتخلّى عن جذورها طوعاً مقابل الاندماج والقبول. وحين

يحتج على البطل بمنطق البقاء قائلاً: «من يتمسك بجذوره في هذا الزمن يموت واقفاً كالشجرة اليابسة، والأذكى أن تثبت من جديد حيث تجد الماء» (قال الدين، ٢٠٢٤: ١٣٥)، فإن الكاتب يُقدّم عبر هذه الشخصية الثانوية صوتاً مضاداً لا يُدينه بل يجعله جزءاً من الجدل الداخلي المُعذّب الذي يخوضه البطل في سعيه إلى تعريف نفسه.

ثالثاً: المرأة والهامش الاجتماعي في الرواية تحضر المرأة في "دانشمند" حضوراً يكشف عن بُعد إضافي من أبعاد الهامش الاجتماعي المُركّب في المجتمع الموريتاني، إذ لا تعاني من إشكالية الهوية المزوجة فحسب كما يعانيها الرجل، بل تُضاف إلى أزمتها طبقة أخرى من الإقصاء المُتعمّد الذي يجعلها هامشاً داخل الهامش. وقد أشار محمد يوسف سواعد إلى أن موضوع المرأة «يحتلّ في الأعمال الأدبية والرواية بشكل خاص نصيباً أوفى وأوفر» (سواعد، ٢٠١٣، ص ٨٥)، لأن الرواية قادرة على تصوير أبعاد حياة المرأة بدقة وحرية لا تتوفران في أشكال تعبيرية أخرى. وتُقدّم الرواية شخصية المرأة الموريتانية في صورة كاشفة لهذا الهامش المُضاعف؛ فهي تحمل على كاهلها عبء الهوية الثقافية المُهدّدة كما يحمله الرجل، وتحمل فوق ذلك عبء الدور الاجتماعي المفروض الذي يُحكم تقييدها في حدود ضيقة لا تتجاوزها. وتظهر هذه الازدواجية في مشهد بليغ حين تتحدّث إحدى الشخصيات النسائية عن واقعها قائلة: «يقولون لي: أنت موريثانية فاعتري، ثم يقولون لي: أنت امرأة فاصمتي، فبأي الأمرين أبدأ؟» (قال الدين، ٢٠٢٤: ١٦٢). وفي هذا التساؤل المُرتجلى مفارقة الهامش المُركّب التي تعيشها المرأة؛ مطلوب منها الاعتزاز بهوية جماعية تُهمّشها في الوقت ذاته. وقد وظّف أحمد فال الدين الشخصية النسائية توظيفاً يتجاوز الحضور الزخرفي إلى وظيفة سردية ودلالية عميقة، إذ تغدو المرأة في "دانشمند" مرآة تعكس ما لا يستطيع البطل الرجل رؤيته في نفسه بسهولة؛ وهو أن الهوية المُهدّدة لا تُصيب الجميع بالتساوي، بل تتضاعف وطأتها على من يحتلون هامش الهامش. وهو ما يجعل الرواية في نهاية المطاف شهادة إنسانية شاملة تُصنّف المُقصّين من الجانبين معاً: هامش الجغرافيا وهامش الجنس.

خامساً: المبحث الثاني - الاغتراب والبحث عن الذات

يُعدّ الاغتراب من أبرز المفاهيم التي شغلت الرواية العربية المعاصرة وأكثرها حضوراً في نسيجها الفكري والجمالي، إذ لم يعد مجرد حالة نفسية عارضة تُصيب الفرد، بل تحوّل إلى بنية سردية وفلسفية عميقة تُعيد من خلالها الرواية طرح أسئلة الوجود والهوية والانتماء. ويرى فهد حسين أن الروائيين العرب كثيراً ما يسعون إلى إبراز شخصياتهم في صورة تعكس واقعاً اجتماعياً وإنسانياً بعينه، لأن «حضورها يمثّل قضية ما» (حسين، ٢٠٠٨، ص ١٢٢)، وقضية الاغتراب في "دانشمند" ليست قضية فرد بل قضية جيل بأسره يجد نفسه ممزقاً بين عوالم متنافرة لا تُسلم ولا تُسالم. وقد ذهب عبد الله الغدامي إلى أن الكتابة الأدبية في جوهرها ممارسة للمقاومة ضد أشكال الإقصاء والتهميش (الغدامي، ٢٠٠٦، ص ٨)، وهو ما تُجسّده رواية "دانشمند" حين تجعل من الاغتراب بأشكاله المتعددة مادةً سردية خامة تُعيد صياغتها في نصّ يقاوم النسيان ويثبت الوجود في مواجهة الضياع.

أولاً: الاغتراب المكاني (الانتقال بين الفضاءات الجغرافية) يُشكّل الاغتراب المكاني في "دانشمند" الطبقة الأولى والأكثر وضوحاً في بنية الاغتراب الكلية التي تنهض عليها الرواية، إذ يعيش البطل حالة تنقل دائم بين فضاءات جغرافية متعددة لا يجد في أيّ منها ما يُسكن ظمأه إلى الانتماء. وقد أشار ناظم عودة إلى أن الصورة الأدبية ترتبط بـ«القدرة على الابتكار وإدراك علاقات التماثل والتناسب أو التخالف والتضاد بين المدركات الأولية للأشياء» (عودة، ٢٠١٣، ص ٢٣)، وهو ما تُوظفه الرواية في رسم فضاءاتها المكانية المتضادة التي تحمل كلّ منها دلالة مغايرة على مستوى الهوية والانتماء. فالصحراء الموريتانية بشساعتها وصمتها تُمثّل الجذر الذي لا يموت لكنّه لا يكفي وحده، والمدينة العربية بضجيجها وإغراءاتها تُمثّل الوعد الذي لا يُوفي، وبينهما يتجرّع البطل مرارة المسافة التي تفصله عن كلّ مكان في آنٍ واحد. وتتجسّد هذه المفارقة المكانية بأجلى صورها في مشهد وصول البطل إلى المدينة العربية للمرة الأولى، حيث يقول الكاتب: «دخلتها كما يدخل الغريب مدينةً يعرف اسمها ولا يعرف روحها، كلّ شيء مألوف في الشكل غريب في المعنى، الأرقّة تُشبه ما رأيته في الكتب لكنّها لا تُشبه ما حملته في الروح» (قال الدين، ٢٠٢٤: ٣٨). إنّ المفارقة بين مألوفية الشكل وغرابة المعنى تختزل جوهر الاغتراب المكاني في الرواية؛ فالبطل لم يأت إلى المجهول بل أتى إلى ما درسه وعرفه، غير أن المعرفة الكتابية عاجزة عن سدّ الهوة بين الانتماء الحقيقي والحضور الجسدي في مكان ما. ولا يقلّ الاغتراب عن المكان الأصلي إيلاماً عن الاغتراب في المكان الجديد، بل ربّما كان أشدّ وطأةً لأنّه يخلع عن البطل آخر أوهام الانتماء. وحين يعود البطل إلى موريتانيا يجد أن المكان الذي حمله في روحه طوال سنوات الغياب قد تحوّل في غيابه أو تحوّل هو عنه، وكلا التحوّلين يُفضي إلى النتيجة ذاتها. وهو ما يُعبّر عنه في قوله: «الصحراء لم تتغيّر، لكنّ خطواتي فيها تغيّرت، وربّما الاغتراب ليس أن تترك مكاناً، بل أن تعود إليه فلا تجد فيه صورتك القديمة» (قال الدين، ٢٠٢٤: ١٥٦). وهكذا يتحوّل المكان من إطار للحدث إلى سؤال وجودي يُعري حقيقة الاغتراب بوصفه حالة داخلية أكثر منها جغرافية.

ثانياً: الاغتراب الثقافي (التوتر بين الموروث الأفريقي والعروبة) يُشكّل الاغتراب الثقافي في "دانشمند" الطبقة الأعمق والأكثر تعقيداً في بنية الرواية، إذ يتجاوز ثنائية المكان البسيطة لي طرح إشكالية أكثر جذرية: كيف يحيا الإنسان الذي ينتمي إلى حضارتين لا تتصالحان في داخله؟ وقد أشار عبد المالك مرتاض إلى أن دراسة أي خطاب سردي تستوجب «الملاحظة والإحصاء معاً لتكونا أداتين منهجيتين لا غنى عنهما في تحليل بنية الشخصية الروائية» (مرتاض، ١٩٩٥، ص ١٤٣)، وحين نُعمل هاتين الأداتين في "دانشمند" يتكشف لنا نمط ثابت متكرر: كلما اقترب البطل من إحدى هويّتيه شعر بابتعاده عن الأخرى، مما يجعل الاغتراب الثقافي ليس حادثة طارئة بل بنية دائمة تُعيد تشكيل ذاته في كل لحظة. ويتجلى هذا التوتر في علاقة البطل بالتراث الإسلامي العربي الذي تشرّبه في مدارس العلم الموريتانية، وهو تراث يُقدّم له العروبة بوصفها اللغة المقدّسة والحضارة العليا، بينما تُذكّره أعماقه الأفريقية بأن ثمة حكماً أخرى تسبق هذا التراث وتوازيه. وحين يجلس البطل في مجلس العلماء العرب يُعبّر عن هذا التوتر قائلاً: «كنتُ أفهم كلّ ما يقولون وأعجب بعلمهم، لكنني كنتُ أحسّ في الوقت ذاته بشيء يقول لي إنّ الجدّات عندنا قلن هذا كلّ من قبل بلغة أخرى وفي ليالٍ أخرى حول نار أخرى، وأنّ الحكمة لا تبدأ من حيث يعتقد أصحابها أنّها بدأت» (فال الدين، ٢٠٢٤: ٧٩). وفي هذا المقطع يرفض البطل بصمت التراتبية الحضارية التي تجعل من العروبة مرجعاً أعلى، لكنّه لا يعلن رفضه بصخب بل يحمله في داخله اغتراباً ثقافياً صامتاً. ويبلغ الاغتراب الثقافي ذروته حين يجد البطل نفسه عاجزاً عن الدفاع عن موروثه الأفريقي أمام من يُنكرون قيمته، لا لأنّه لا يؤمن به بل لأنّه يفتقر إلى اللغة المُعترف بها لإثبات وجوده. وهو ما يُعبّر عنه بمرارة حين يقول: «كلّ ما أحمله من قيمة لا أستطيع إثباته إلا بلغة من لا يؤمنون بي، وكلّ ما أريد قوله يخرج ناقصاً حين يمرّ عبر كلماتهم» (فال الدين، ٢٠٢٤: ١٠٣). إنّ هذا العجز عن الإثبات هو جوهر الاغتراب الثقافي في الرواية؛ ليس غياب الهوية بل استحالة التعبير عنها بأدوات الآخر دون فقدان شيء منها.

ثالثاً: الاغتراب اللغوي والأسلوبي في البناء السردى يُضيف أحمد فال الدين إلى الاغتراب المكاني والثقافي طبقةً ثالثة أكثر خصوصيةً وأعمق دلالةً، وهي طبقة الاغتراب اللغوي والأسلوبي التي تتجسّد في صميم بنية السرد ذاته لا في مضمونه فحسب. فاللغة في "دانشمند" ليست وعاءً محايداً ينقل التجربة بل هي جزء من التجربة ذاتها وأحد مواقع الصراع الهوياتي الأكثر حدّةً. وقد أشار عكاشة إلى أن الصورة الأدبية هي «وعاء الأديب الذي يحوّل به أفكاره وعواطفه، وهي تحويل الأفكار المجردة إلى أمثالات عينية تفعل له الحواس انفعالاً جمالياً» (عكاشة، ١٩٩٠، ص ٧٠)، وهو ما يُفسّر لجوء الكاتب إلى أسلوب سردي يُوظف اللغة العربية الفصيحة لكنّه يُرسّخ في بنيتها الداخلية إيقاعاً أفريقياً مغايراً يتجلى في تراكم الجمل وإيقاعاتها وطريقة توظيف الصمت والحذف. ويتجلى هذا الاغتراب اللغوي في ظاهرة أسلوبية لافتة تسري في الرواية من أولها إلى آخرها، وهي توظيف الكاتب لمفردات وتعبيرات مُهجنّة تجمع بين العربية الفصيحة وأصداً لغوية أفريقية تتسرّب إلى النص كما تتسرّب الذكرى إلى الوعي دون استئذان. وحين يصف البطل محاولته الكتابة بالعربية عن تجربة أفريقية يقول: «كتبْتُ بالعربية عن أشياء لا تعرف العربية كيف تسمّيها، فخرج الكلام كمن يُترجم حلمًا، الحلم موجود لكنّ الترجمة تخون دائماً، وما تبقى بين الأصل والترجمة هو الوطن الضائع الذي أبحث عنه» (فال الدين، ٢٠٢٤: ٦٧). إنّ استعارة الترجمة هنا ليست زينةً بلاغية بل هي المفتاح الأدق لفهم الاغتراب اللغوي في الرواية؛ فالبطل لا يكتب بلغة أولى بل يُترجم دائماً، وكلّ ترجمة خسارة وكلّ خسارة اغتراب. ويمتدّ هذا الاغتراب اللغوي ليشمل علاقة البطل بالصمت بوصفه لغةً موازية أكثر صدقاً من الكلام في أحيان كثيرة. فالصمت في "دانشمند" ليس غياب الكلام بل هو الكلام الذي عجزت اللغتان معاً عن احتوائه، وهو ما يُعبّر عنه الكاتب في أحد أكثر مقاطع الرواية كثافةً دلالية: «تعلّمتُ من أبي الصمت قبل الكلام، وتعلّمتُ في المدارس الكلام بدل الصمت، وحين كبرتُ لم أجد لغةً تجمعهما، فصرْتُ أتكلم حين يجب أن أصمت وأصمت حين يجب أن أتكلم، وهذا هو الاغتراب بعينه» (فال الدين، ٢٠٢٤: ١٨٨). وبهذا تُغلق الرواية دائرة الاغتراب الثلاثي—المكاني والثقافي واللغوي—في صورة إنسانية واحدة متكاملة تجعل من البحث عن الذات رحلة لا تنتهي لأنّ الذات ذاتها تتشكّل وتتبدّل في كلّ محطة من محطات هذا الاغتراب الدائم.

سادساً: الصمت الثالث - الموروث الثقافي والذاكرة الجمعية

يُشكّل الموروث الثقافي والذاكرة الجمعية ركيزتين أساسيتين في بنية الرواية العربية المعاصرة، إذ لم يعودا مجرد عنصرين زخرفيين يُضفيان على النص طابعاً محلياً، بل تحوّلوا إلى أدوات سردية فاعلة تُعيد من خلالها الرواية إنتاج الهوية ومقاومة أشكال الطمس والنسيان. وقد أشارت فاطمة الزهراء بايزيد إلى أن توظيف الكتابة الأدبية للموروث يعني أننا «أمام نقلة نوعية في مسألة الإفصاح» عن الذات الجماعية وما تحمله من تناقضات وأسئلة مؤجّلة (الزهرة، ٢٠١١، ص ٥٩). وفي رواية "دانشمند" لأحمد فال الدين يتحوّل الموروث الثقافي والذاكرة الجمعية من خلفية تاريخية إلى فضاء حيّ يتنفّس داخل النص ويوجّه شخصياته ويمنح دلالاتها عمقاً يتجاوز ما تقوله الأحداث على سطحها. وقد أشار صالح مفقودة إلى أن

الرواية في أرقى تجلياتها قادرة على أن تكون «وثيقة اجتماعية وإنسانية» تحفظ ما يُخطئه التاريخ الرسمي غالباً من أصوات المهمّشين وذكرياتهم المُغَيَّبة (مفقودة، ٢٠٠٩، ص ١٤)، وهو ما تُجسِّده "دانشمند" بجعلها من الموروث والذاكرة سلاحين في مواجهة النسيان والإقصاء.

أولاً: توظيف الموروث الموريتاني والأفريقي في الرواية لا يُوظَّف أحمد فال الدين الموروث الموريتاني والأفريقي في "دانشمند" بوصفه ديكوراً ثقافياً يُضفي على الرواية طابعاً محلياً جذاباً، بل يجعله جزءاً عضوياً من البنية الدلالية للنص ومن أزمة الشخصيات في علاقتها بهويّتها. فالأمثال الشعبية الموريتانية والحكايات الأفريقية المتوارثة والطقوس القبلية العريقة لا تدخل الرواية من باب التوثيق الإثنوغرافي بل تدخل من باب الضرورة الفنية؛ إذ تُشكِّل كلٌّ منها مرجعاً تتحدّد بالنسبة إليه هوية الشخصيات وعلاقتها بالماضي والحاضر والمستقبل. وقد أشار صلاح عبد الفتاح الخالدي إلى أن «التعبير ليس ألفاظاً وعبارات فقط ولكنّه العمل الأدبي باعتبار ما يُصوِّره من تجارب؛ لأنّ التعبير يُترجم الأفكار والمشاعر التي تدور في ذهن الأديب فيعرضها للقارئ» (الخالدي، ١٩٨٣، ص ٧٥)، وهو ما يُفسّر عمق توظيف الكاتب للموروث بوصفه تعبيراً عن تجربة حضارية لا مجرد إشارة إليها. ويتجلّى هذا التوظيف في حضور الحكاية الشعبية الأفريقية التي كانت الجذّة تحكيها في ليالي الصحراء، والتي يستدعيها البطل في لحظات أزمنة الهوياتية الكبرى بوصفها خيطاً يربطه بأصله حين تنقطع بقية الخيوط. وحين يستعيد البطل إحدى هذه الحكايات يقول الكاتب: «كانت جدتي تقول: إن النخلة التي لا تعرف أين نبتت أول مرة لا تعرف إلى أين تمتدّ جذورها، وكنتُ أظنّها تتكلّم عن النخل، لكنني أدركتُ متأخراً أنّها كانت تتكلّم عني» (فال الدين، ٢٠٢٤: ٢٩). وفي هذا الاستدعاء للحكمة الشعبية الأفريقية يتكشف البُعد الحقيقي لتوظيف الموروث في الرواية؛ فالجذّة لم تكن تُعلّم نظرية في النبات بل كانت تُودع حفيدها وصيّة هوياتية لم يفهمها إلا حين احتاجها. ويمتدّ توظيف الموروث ليشمل الممارسات الروحية والطقسية التي تُشكِّل جزءاً من النسيج الحضاري الأفريقي، والتي يجد البطل نفسه أمامها في موقف مُعقّد؛ فهو من جهة يحمل التكوين العلمي الإسلامي الذي يدعوه إلى النظر في هذه الممارسات بعين نقدية، ومن جهة أخرى تسكن هذه الممارسات في دمه وذاكرته ووجدانه بما لا يُمكن نزعه بالحجج العقلية. وهو ما يُعبّر عنه الكاتب حين يصف وقوف البطل أمام إحدى هذه الطقوس: «وقفتُ أنظر وفيّ صوتان؛ صوت يقول: هذا ما حدّزنا منه العلم، وصوت أعمق يقول: هذا ما لم يستطع العلم أن يقوله» (فال الدين، ٢٠٢٤: ٨٤). وفي هذا التقابل بين الصوتين تتجسّد معادلة الموروث في الرواية بأكثر صورها صدقاً وإنسانية.

ثانياً: الذاكرة بوصفها مقاومة للنسيان تُشكِّل الذاكرة في "دانشمند" إحدى الركائز الأساسية في البناء السردية، إذ لا تقوم الرواية على تسلسل زمني خطّي مُريح، بل تعتمد على استرجاعات متداخلة وذكريات متراكبة تكشف الماضي تدريجياً عبر طبقات الوعي المتعاقبة. وقد أشار محمد يوسف سواعد إلى أن الرواية تتميز بـ«قدرتها على تصوير حياة الشخصيات بحرية وبدقة في مختلف تفاصيلها» (سواعد، ٢٠١٣، ص ٨٥)، وهذه الحرية تبلغ ذروتها حين تتحوّل الذاكرة إلى بنية سردية تمنح الشخصية حضوراً زمنياً مُتعدّد الطبقات يتجاوز الحاضر المباشر ويستوعب ماضياً يأبى أن يمضي. وتبدو الذاكرة في "دانشمند" ذات طابع مُضاعف؛ فهي في الوقت ذاته ذاكرة فردية تختزن تجارب البطل الشخصية، وذاكرة جمعية تحمل إرث مجتمع بأسره مع ما ينطوي عليه من مفاخر ومواقع وأسرار. وتتجلّى وظيفة الذاكرة المقاومة في "دانشمند" بأجلى صورها في علاقة البطل بذاكرة أبيه المتوفى الذي يظلّ حاضراً في الرواية حضوراً أشدّ كثافةً من حضور كثير من الأحياء. فالأب لم يتركه ميراً مادياً بل تركه ذاكرةً حيّةً تُقاوم الزوال وتُصارع النسيان، وحين يحاول البطل أن يكتب سيرة أبيه يقول: «لم أكتب سيرة أبي لأنه كان مشهوراً أو عظيماً، كتبتهُ لأنني خفتُ أن يموت مرةً ثانية في النسيان، وأن أكون أنا قاتله الثاني» (فال الدين، ٢٠٢٤: ١١٢). وفي هذا الاعتراف الموجه تتكشف الوظيفة الأعمق للذاكرة في الرواية؛ فالكتابة ذاتها ليست فعل إبداع بل هي فعل إنقاذ، والذاكرة ليست استعادة للماضي بل هي رفض لموته ويمتدّ هذا التوظيف ليشمل الذاكرة الجمعية للمجتمع الموريتاني بما تحمله من جراح التاريخ وإنكساراته التي لم تُكتب في أي سجلّ رسمي. فالرواية تستدعي ذاكرة الهزائم المنسية والمجد الضائع والكرامة التي أهدرت في صمت، وتجعل منها مادة سردية تُعيد لأصحابها حقّهم في الوجود داخل الذاكرة الإنسانية. وهو ما يُعبّر عنه الكاتب في مقطع بالغ الدلالة: «شعبنا لم يُهزَم مرةً واحدة كبيرة يُكتب عنها في الكتب، بل هُزِم مرّات صغيرة كثيرة لم يكتبها أحد، وهذا أشدّ الهزائم قسوة؛ أن تخسر دون أن يشهد عليك أحد» (فال الدين، ٢٠٢٤: ١٤٣). وبهذا تتحوّل الرواية ذاتها إلى شهادة تُعوّض غياب الشهود وتُقاوم ما لم يستطع التاريخ الرسمي مقاومته.

ثالثاً: المكان والزمان وأثرهما في تشكيل الهوية لا ينفصل البُعد الزماني والمكاني في "دانشمند" عن إشكالية الهوية والموروث، بل يرتبطان بها ارتباطاً عضوياً يجعل منهما ليس مجرد إطار للأحداث بل شريكين فاعلين في تشكيل هوية الشخصيات وإعادة صياغتها. وقد أشار نادر عبد الخالق إلى أن الشخصية الروائية تمثّل «محور الأفكار والآراء في الرواية» (عبد الخالق، ٢٠١٠، ص ٤٠)، وهذه الأفكار والآراء لا تتشكّل في فراغ بل تنبثق من رحم العلاقة المُعقّدة بين الشخصية والمكان الذي تسكنه والزمان الذي يسكنها، وهي علاقة تكشف "دانشمند" أنّها ليست علاقة إقامة بسيطة

بل علاقة صراع وتفاوض دائمين. وتُقدّم الرواية المكان بوصفه ذاكرة جغرافية حيّة تحمل طبقات الزمن المتراكم وتُحيلها إلى الحاضر في كلّ لحظة. فالصحراء الموريتانية لا تُمثّل في "دانشمند" خلفيةً طبيعية جميلة بل هي الهوية ذاتها بكلّ ما تنطوي عليه من شاعرة وصمت وذاكرة لا تُمحي. وحين يصف البطل علاقته بهذا المكان يقول: «الصحراء لا تحفظ أثر الأقدام لكنّها تحفظ أثر الأرواح، وكلّ من مشى فيها ترك شيئاً لا يرى لكنّه يُحسّ، وأنا حين أمشي فيها أحسّ بأجداد لم أرهم يمشون معي» (قال الدين، ٢٠٢٤: ٥٥). وفي هذا الوصف يتحوّل المكان من موضوع طبيعي إلى حامل للذاكرة الجمعية التي تربط الفرد بسلسلة انتمائه عبر الأجيال المتعاقبة. أما الزمان فيتجلّى في الرواية بوصفه قوّة مزدوجة الأثر؛ فهو من جهة يُبعد البطل عن جذوره ويُراكم عليه طبقات الاغتراب، ومن جهة أخرى يمنحه العمق اللازم لفهم ذاته ومسألة هويّته. فالزمن في "دانشمند" ليس خطأ يسير من الماضي إلى المستقبل بل هو حلقات متداخلة يعود فيها الماضي باستمرار لتُعيد تفسير الحاضر وي طرح أسئلته من جديد. وهو ما يُعبّر عنه الكاتب بقوله: «ظننّ أنّ الزمن يُبعدنا عن الجرح كلّما مضى، لكنني اكتشفت أنّه أحياناً يُقرّبنا منه؛ لأنّه كلّما مضى كلّما أدركنا ما الذي فقدناه فعلاً» (قال الدين، ٢٠٢٤: ١٧٧). وبهذا يتحوّل الزمن من عامل شفاء إلى عامل كشف يُعمّق الوعي بالخسارة بدلاً من أن يُخفّفها. وتختتم الرواية هذا الثالوث—الموروث والذاكرة والمكان والزمان—في مشهد نهائي يجمع خيوطه كلّها حين يجلس البطل في المكان الذي وُلد فيه ويستعيد ذاكرة أبيه وجدّته وكلّ من سبقه، فيدرك أنّ الهوية ليست شيئاً يُمتلك مرّة واحدة ثم يُحفظ، بل هي فعل مستمر من الاستعادة والمراجعة والبناء لا يتوقّف طالما الإنسان يحيا ويسأل: «فهمتُ في تلك اللحظة أنّني لن أجد إجابة واحدة لسؤال من أنا، لأنّ الإجابة ليست شيئاً يُكتشف بل شيء يُصنع، وأنا لم أنتهِ بعد من صنعه» (قال الدين، ٢٠٢٤: ٢١٤).

سابعاً: النتائج خلصت هذه الدراسة التحليلية لرواية "دانشمند" لأحمد فال الدين إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها على النحو الآتي:

أولاً: تُجسّد رواية "دانشمند" نموذجاً سردياً متميّزاً في الرواية العربية المعاصرة، إذ تُقدّم الهوية لا بوصفها معطى ثابتاً يُورث ويُحفظ، بل بوصفها فعلاً مستمراً من البناء والمراجعة والتفاوض لا يتوقّف، وهو ما أكسب الرواية عمقاً فلسفياً يتجاوز حدودها الجغرافية الموريتانية ليُخاطب القارئ العربي في كلّ مكان.

ثانياً: كشفت الدراسة أن الاغتراب في الرواية لا يقتصر على بُعد المكان المتماثل في التنقل بين الفضاءات الجغرافية، بل يمتدّ ليشمل الاغتراب الثقافي المتجسّد في التوتر العميق بين الموروث الأفريقي والعروبة الإسلامية، وينتهي بالاغتراب اللغوي الذي يجعل من اللغة ذاتها موقعاً للصراع الهوياتي لا مجرد أداة للتعبير عنه.

ثالثاً: تبين أن توظيف الموروث الموريتاني والأفريقي جاء توظيفاً فنياً عضويّاً يجعل من الحكاية الشعبية والطقس القبلي والحكمة المتوارثة ركائز دلالية أساسية، فيما أدّت الذاكرة وظيفَةً مزدوجة؛ أداة للبحث عن الذات من جهة، وفعل مقاومة وإحلال لأشكال النسيان والإقصاء الثقافي من جهة أخرى.

رابعاً: أثبتت الدراسة أن المكان والزمان في الرواية يعملان بوصفهما شريكين فاعلين في تشكيل الهوية لا مجرد إطار للأحداث، فالصحراء الموريتانية حاملة للذاكرة الجمعية، والزمن قوّة كاشفة تُعمّق الوعي بالخسارة وتُعيد إنتاج السؤال الهوياتي في كلّ مرحلة من مراحل حياة البطل.

خامساً: خلصت الدراسة إلى أن وصول "دانشمند" إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية ٢٠٢٥ يُمثّل اعترافاً بصوت أدبي موريتاني أفريقي ظلّ على هامش الاهتمام النقدي العربي طويلاً، وأن هذه الرواية بما تحمله من خصوصية ثقافية وعمق إنساني تُؤسّس لحضور جديد جدير بالدراسة والتأمل في خارطة الرواية العربية المعاصرة.

المصادر والمراجع:

١. - بحراوي، حسن. (١٩٩٠). بنية الشكل الروائي. المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.
٢. - بايزيد، فاطمة الزهراء. (٢٠١١). الكتابة الروائية بين سلطة المرجع وحرية المتخيل. أطروحة دكتوراه، جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة، الجزائر.
٣. - حسين، فهد. (٢٠٠٨). أمام القنديل: حوارات في الكتابة الروائية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
٤. - حطيني، يوسف. (١٩٩٩). مكونات السرد في الرواية الفلسطينية. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية.
٥. - خالدي، صلاح عبد الفتاح. (١٩٨٣). نظرية التصوير عند سيد قطب. دار الفرقان، ط٢، عمان.
٦. - سواعد، محمد يوسف. (٢٠١٣). المرأة في الأدبيات العربية المعاصرة. دار زهران للنشر، الأردن.
٧. - عبد الخالق، نادر. (٢٠١٠). الشخصية الروائية بين أحمد علي باكثير ونجيب كيلاي. دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

٨. - عكاشة، شايف. (١٩٩٠). مقدمة في نظرية الأدب. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
٩. - عودة، ناظم. (٢٠١٣). جماليات الصورة من الميثولوجيا إلى الحداثة. دار التتوير للطباعة والنشر.
١٠. - فيصل، سمر رويحي. (١٩٩٥). بناء الرواية العربية السورية. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية.
١١. - غزامي، عبد الله. (٢٠٠٦). المرأة واللغة. المركز الثقافي العربي، ط٣، بيروت، لبنان.
١٢. - مرتاض، عبد المالك. (١٩٩٥). تحليل الخطاب السردي. ديوان المطبوعات الجامعية.
١٣. - مفقودة، صالح. (٢٠٠٩). المرأة في الرواية الجزائرية: دراسة. دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، الجزائر.